

# الفصل الأول

## كلمة تاريخ وتطور استخدامات العرب لها

كلمة التاريخ في اللغة العربية تعني الاعلام بالوقت ، ويقال ارخت الكتاب وورخته توريخا أى حددت وقت كتابته <sup>(١)</sup> .

فكلمة توريخ تعنى أيضا التعريف بالوقت وهى لفظ عربى أصيل وقيل انها مأخوذة من أصل سريانى معناه الشهر .

وعن هذه الكلمة يقول الصولى تاريخ كل شئ غايته ووقته الذى ينتهى اليه زمنه <sup>(٢)</sup> ، ويقول السخاوى انه التعريف بالوقت الذى تضبط فيه الأحوال من مولد الرواة ، والائمة ، ووفاة ، وصحة ، وعقل ، وبدن ورحلة ، وحج ، وحفظ ، وضبط ، وتوثيق ، وتجريح <sup>(٣)</sup> .

أما عن نشأة كلمة التاريخ بالهمز ، والتاريخ بتسهيل الهمز فتختلف الروايات حولها وان كان رأى السائد انها ليست عربية محضة <sup>(٤)</sup> ،

(١) انظر . مجمع اللغة العربية : القاموس المحيط ج ١ ص ١٣ ، وبطرس البستاني . محيط المحيط ، بيروت ١٩٨٣ ص ٧ ، وملا كاتب جلبى : كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون ج ١ ، استنبول ١٣١٠ هـ صفحة ٢١٢ .

(٢) أبو بكر الصولى : ادب الكتاب — تحقيق محمد بهجة الاثرى ، القاهرة ١٣٤١ هـ ص ١٧٨ .

(٣) شمس الدين السخاوى : الاعلام بالتبويخ لمن ذم التاريخ ، بيروت، دار الكتاب العربى ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م ص ٧ .

(٤) من المعروف ان تحديد الوقت عند العرب قبل الاسلام كان يرتبط دائما بأمر مشهور يحدث لديهم فعرب الجاهلية كانوا لفظة الامية عليهم

فالبحر يعتقد ان أصلها غربى والبعض الآخر يعتقد ان أصلها شرقى . ويستند أصحاب الرأى الأول على انها مأخوذة من كلمة أرخى Arché اليونانية بمعنى بداية أو حكم ، وأرخابوس Archaïos بمعنى قديم ويستندون فى ذلك الى ان التاريخ ما هو الا ذكر للاحداث من قديمها الى حديثها ، كما يرى بعض هؤلاء انها مأخوذة من كلمة هستوريا Historia الرومانية التى تعنى البحث عن الأشبا، الجديرة بالمعرفة ، ثم تدهور استعمال هذه الكلمة فى اللاتينية حتى استعادت قيمتها فى اللغات الحديثة .

أما عن الرأى الآخر الذى يرجح ان أصل هذه الكلمة شرقى فيستند بعضهم على ان كلمة التاريخ معربة من كلمة ماه روز<sup>(٥)</sup> الفارسية ومعناها حساب الشهور والأيام<sup>(٦)</sup> كما يستند بعضهم الآخر على ان أصول هذه الكلمة سامية وانها مشتقة من القمر أو الشهر بمعنى انها تعنى التوقيت حسب القمر .

ولنا هنا ان نشير الى انه كان لدى العرب قبل الاسلام أنماط متعددة من المعرفة التاريخية منها الأيام والأنساب والقصص ففى الأيام عرفت العرب نوعا من التاريخ الشفوى وخصوصا انهم كانوا مطبوعين على الحفظ مخصوصين بذلك ، فقد كانت القبائل تروى فيها مآثرها والحروب التى خاضتها والانتصارات التى حققتها وقد اتخذت هذه الأيام فى اغلب الأحيان أسماء الشخصيات التى شاركت فيها ، أو أماكن الأحداث التى وقعت عليها أو السبب الذى دعا اليها أو غير ذلك ، وأكثر ما تكون تسميه اليوم بالمكان كيوم الكلاب وهو موضع بين الكوفة والبصرة ، وغير ذلك .

يتذكرون أيامهم وأحداثهم عن طريق الرواية الشفوية على هيئة أشعار أو أخبار متفرقة ، وكانوا يبنون التاريخ على الليالى دون الأيام بخلاف العجم ، كما كانوا يؤرخون بالأمور المشهورة التى كانت تحدث لديهم فترخ العدنانيون بعام نزول اسماعيل مكة ، وكذلك أرخوا بعام النيل الذى ولد فيه بنى الاسلام محمد بن عبد الله .

(٥) ماه تعنى القمر ، وروز تعنى اليوم .

(٦) البيرونى : الآثار الباقية عن القرون الخالية ص ٢٩ .

وبالنسبة للأنساب فقد كانت كل قبيلة تحتفظ بنسبها كما كان لكل قبيلة نسبها .

أما عن القصص فقد كانت في معظمها مليئة بالأساطير والخرافات التي تروى للأجيال عن بطولات مزيفة وأخبار مصطنعة .

وعلى كل حال فإن هذه الأنماط من المعرفة التاريخية لم يكن الهدف من تناولها تكوين مادة تاريخية تربط ماضي العرب بحاضرهم بقدر ما كانت ترجع إلى الروايات الأدبية التي تنسم بالمبالغة والتحيز لكي تتفاخر بها القبائل في أثناء أسفارها للاستمتاع بها .

والجدير بالذكر أن كلمة تاريخ لم تذكر في الأدب الجاهلي ولا في القرآن الكريم ، ولا في الأحاديث النبوية الشريفة وإن كان من المسلم به أن القرآن الكريم قد عمق الإحساس التاريخي عند العرب حين أشار إلى الأمم والقبائل والأنبياء السابقين ، وقص عليهم قصص الأمم الخالية بهدف إثارة العبرة في نفوسهم كما أثبت أن للتاريخ معنى معيناً على الإنسان أن يتبعه دائماً ، وهو أن الإنسان هو الذي يصنع مصيره بنفسه خيراً كان أم شراً فإن حسن عمله في حياته ازدهرت حضارته ، وازدانت معيشتة وإن أسد حق عليه العذاب والدمار . يقول تعالى « قد خلت من قبلك سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين » (٧) .

وقال تعالى « يريد الله ليعين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم » ويتوب عليكم والله عليم حكيم » (٨) .

وبعد ظهور الإسلام تطلبت الظروف الجديدة التي طرأت على المجتمع الإسلامي ظهور أنماط جديدة من المعرفة التاريخية وكان من أبرزها ظهور الوثائق السياسية فقد كان من أول أعمال الرسول صلى الله

---

(٧) آل عمران : الآية ١٣٧ .

(٨) النساء : الآية ٢٦ .

عليه وسلم كتابه الذى نظم به التعاون بين المهاجرين والأنصار واليهود (٩) . وقد كان بمثابة المعاهدة الأولى فى الإسلام ، ثم الرسالة التى أرسلها صلى الله عليه وسلم لعبيد الله بن جحش فى سريته المعروفة (١٠) ، وتوالت بعد ذلك المعاهدات والأحلاف بين الرسول والمشرىين ، كما توالت الرسائل بينه وبين قواده ، وبينه وبين ملوك وحكام البلدان المجاورة أمثال ملوك فارس ، والروم ، ومصر والحبشة وغيرها .

وعلى الرغم من ذلك فإن كلمة التاريخ عند العرب لم تستعمل الا فى عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب فبعد أن أرسل الى أبو موسى الأشعرى يخبره بحيرته فى العمل بما يرد الىه من مراسلات بقونه « أنه يأتينا من قبل أمير المؤمنين كتب لا ندرى على أيها نعمل . فقد قرأنا صكا محله شعبان ، فما ندرى أى الشعبانين أهو الماضى أم القابل ؟ » (١١) ونتيجة لذلك جمع عمر وجوه الصحابة رضى الله عنهم وقال « ان الأموال قد كثرت وما قسمناه غير مؤقت فكيف التوصل الى ما يضبط به ذلك ، فقال له الهرمزان (١٢) « ان للعجم حسابا يدومونه ( ماه روز ) » ثم شرح للصحابة كيفية استعمال ذلك فقال لهم عمر « ضعوا للناس تاريخا يتعاملون عليه وتصير أوقاتهم فيما يتعاطونه من المعاملات مضبوطة » فقال له بعض من حضر من مسلمى اليهود « أن لنا حسابا مثله مسندا الى الاسكندر » فما ارتضاه الآخرون لما فيه من الطول ، وقال قوم نكتب على تاريخ الفرس ، قيل ان تواريخهم غير مسندة الى مبدأ معين . بل كلما قام منهم ملك ابتدءوا

---

(٩) ابن هشام : السيرة النبوية — ( أربعة أجزاء ) تحقيق مصطفى السقا وآخرون ج ٢ ص ١٤٧ .

(١٠) نفسه ج ٢ ص ٢٥٢ .

(١١) عبد الرحمن الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ج ١ ، القاهرة ، المطبعة العامرة الشرفية ، ١٣٢٢ هـ ص ٢ — ٣ .

(١٢) ملك الأهواز ، وقد أسر عند فتوح فارس ، وحمل الى عمر وأسلم على يديه .

التاريخ من لدن قيامه ، وطرحوا ما قبله <sup>(١٣)</sup> ، وتبادلوا الراى فيما يتخذونه بداية لتاريخ المسلمين فرأى البعض أن يكون المبدأ ميلاد محمد صلى الله عليه وسلم ، ورأى بعض آخر أن يكون سنة البعثة ، ثم استقر الراى على اختيار الهجرة وخاصة أنها فرقت بين الحق والباطل ، هذا الى جانب أن وقتها لم يختلف فيه أحد ، كما اختار المسلمون شهر المحرم بداية للسنة الهجرية لأنه منصرف الناس من حجهم . وهكذا كان المسلمون مستقلين فى اختيارهم عن غيرهم ، معززين بهجرة نبيهم التى كانت منطلقاً لبناء الدولة الاسلامية ، ونتيجة لذلك صار التقويم الهجرى عنصراً حيوية فى نشأة الفكرة التاريخية عند العرب .

وقد ظلت كلمة تاريخ عند العرب تعنى الحقبة او الزمن ثم اكتسبت بعد ذلك معنى البحث فى وقائع الزمان وأحواله وفى ذلك يقول السخاوى عن التاريخ « أما موضوعه فالانسان والزمان ، ومسائله : أحوالهما المفصلة للجزئيات تحت دائرة الأحوال العارضة الموجودة للانسان وفى الزمان » (١٥) .

ومع ذلك دار نقاش طويل حول مدلول هذه الكلمة فى اللغات العربية والأوربية ، وفى اللغة العربية يسرى البعض أن كلمة تاريخ بالهزة أدق من كلمة تاريخ ( بالالف اللينة ) ويرى البعض الآخر عكس ذلك ، ويبدو أن هذا اللبس ذاته موجود فى اللغات الأوربية فكلمة History الانجليزية ، وكلمة Histoire الفرنسية ، وكلمة Geschichte الألمانية تستعمل غالباً للمعنيين وإن كان بعض

العلماء قد حاول التمييز بينهما فاطلق بعض الفرنسيين مثلاً Histoire ( بـ H كبرى ) على الماضى ، وكلمة Histoire على العلم ، واحتفظ الألمان بكلمة Geschichte للمعنى الاول وكلمة Histoire للمعنى الثانى .

(١٣) الجبرتى : المصدر السابق ج ١ ص ٢ — ٣ .

(١٤) عبد العزيز الدورى : بحث فى نشأة علم التاريخ عند العرب ، بيروت ، دار المشرق ١٩٨٣ ص ١٩ .

(١٥) شمس الدين السخاوى : المصدر السابق ص ٧ .

أما في العربية فإننا نتفق مع الراى الذى يقول ان كلمة تأريخ يمكن أن تطلق على دراسة الماضى ، أما كلمة تاريخ فتطلق على الماضى ذاته (١٦) .

وعلى أى حال فإن علم التاريخ عند المسلمين يرتبط بعلم الحديث الذى يعد أحد فروع المعرفة الرئيسية فى الدراسات الإسلامية اذ عنى المسلمون بجمع الأحاديث ليفسروا بها القرآن ، ويستنبطوا احكام الدين فاعتمدوا على طريقة الجرح والتعديل فى الحديث للوصول الى الحقيقة وقد أكد السخاوى ذلك بقوله : « فعلم التاريخ من فنون الحديث النبوى . وقعه من الدين عظيم ، ونفعه متين فى الشرع » (١٧) ومعنى ذلك ان العناية بدراسة الحديث والكتابة فى سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم قد شجعت على القيام بالدراسات التاريخية فكان الاهتمام باقوال الرسول وأفعاله للاهتمام بها أو الاعتماد عليها فى التشريع وفى التنظيم الإدارى ، وفى شؤون الحياة ، مصدرا هاما للتشريع كما كانت مغايزه وغزوات أصحابه موضع اهتمام واعتزاز لدى المسلمين ومجالا للدراسات التاريخية (١٨) وقد انتهت الينا سيرة الرسول فى كتاب عبد الملك بن هشام الذى انتهت اليه السيرة التى كتبها ابن اسحاق الذى قسم السيرة الى ثلاثة أقسام قسم يتناول فترة ما قبل الإسلام وقد أطلق عليه ابن اسحاق المبتدأ ، والقسم الثانى ويتناول ميلاد الرسول ونشأته حتى البعثة ، أما القسم الثالث فيتناول حياة الرسول بعد البعثة الى وفاته (١٩) .

ولما توسعت الدراسة فى الحديث لتشمل أقوال الصحابة والتابعين توسعت الدراسات التاريخية على غرارها ، يضاف الى ذلك أن القضايا

---

(١٦) قسطنطين زريق : نحن والتاريخ ، بيروت ، دار العلم للملايين ، الطبعة الثالثة ، ١٩٧٤ ص ١٤ .

(١٧) السخاوى : التبر المسبوك فى ذيل السلوك ، القاهرة مطبعة بولاق ، ١٨٩٦ ص ٢٠٢ .

(١٨) الدورى : المرجع السابق ص ١٩ — ٢٠ .

(١٩) للتفاصيل : انظر ابن اسحاق : المصدر السابق .

السياسية ، ونظم الحكم وخاصة مسألة الخلافة ، وتراجم الاعلام وطبقات الرجال تطلبت البحث فى النواحي التاريخية . ومن هنا ظهرت دراسات فى السيرة النبوية وفى المفازى<sup>(٢٠)</sup> وفى نسب قريش ، وفى الأنظمة الادارية فى الأمة الاسلامية ، وفى التراجم لرجال الفقه والحديث والعلم وغيرهم . ونتيجة لذلك تحول الاخباريون والنسابون فى القرن الثانى الهجرى الى كتابة التاريخ فى صورة يوميات ، ثم حوليات ، ومن يقرأ هذا النوع من التدوين التاريخى فكانه قد عايش الأحداث يوما بعد يوم ، وشهرا أو سنة فى اثر شهر أو سنة .

وتكنى مراجعة يسيرة لكتاب الفهرست لابن النديم وكتاب كشف الظنون لحاجى خليفة للامام بذلك الرصيد الضخم من تراث العصر الذى أضاف اليه كل جيل رصيده .

وفى العصر العباسى الاول ازدهرت حركة جمع الشعر الجاهلى وتدوينه لحماية هذا التراث الذى ظل ينقل مشافهة من جيل الى جيل ، مما أدى الى تعرضه لآفات الرواية النقلية أحيانا ، وإلى ضياع بعضه فى غمار الزمن ، ومتاهة النسيان أحيانا أخرى<sup>(٢١)</sup> .

ومن المعروف ان التدوين التاريخى شئ والتأليف التاريخى شئ آخر مختلف تماما فالأول مجرد نقل الأحداث والأخبار ، والثانى هو عرض الأحداث وتبويبها وتحليلها فلا يقف المؤرخ عند نقل الحوادث وسردها بل يضم اليها رأيه ويصدر عليها حكمه ، أى ان التدوين يصلح أن يكون مادة لصناعة التاريخ فى حين أن التأليف التاريخى هو التاريخ الذى يقيم عن طريقته تفسير الأحداث وأبراز طبيعتها .

---

(٢٠) للتفاصيل انظر . محمد الواقدى : مفازى الرسول وسراياه

— نشر جماعة الكتب القديمة ١٣٦٧ هـ / ١٩٤٨ م .

(٢١) بدأ الاهتمام بجمع هذا التراث لاستنقاذ تراث العربية من التيار الشموبى الذى تفشت فيه العجمة واختلاط الألسن لتفاصيل ذلك ، انظر ، عائشة عبد الرحمن : تراثنا بين ماضى وحاضر ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٣٨٩ هـ / ١٩٧٠ ، ص ١٣ .

وقد اشترط علماء المسلمين في صحة التدوين التاريخي أن يكون الراوى للحدث أو الواقعة أحد شهود العيان له فقرنوا صحة الخبر بالشهادة ، والشهادة لا تثبت الا عن رؤية أو سماع ، وعلى هذا الأساس تكونت المعرفة التاريخية لدى المسلمين .

ونتيجة لأهمية التاريخ في حياة الأمة الإسلامية عدد الكتاب المسلمون فوائد التاريخ . يقول ابن الاثير <sup>(٢٢)</sup> « ان فوائد التاريخ كثيرة ، ومنفعة الدنيوية والأخروية كثيرة » وقد عدد هذه الفوائد بقوله :

١ — ان الانسان لا يخفى انه يحب البقاء ، ويؤثر أن يكون في زمرة الأحياء ، وانه لا يجد فرقا بين ما يراه ويسمعه وبين ما يقرأه في الكتب المتضمنة أخبار الماضين وحوادث المتقدمين « فاذا طالعها فكانه عاصرهم واذا علمها فكانه حاضرهم » .

٢ — ان الحكماء اذا وقفوا على سيرة أهل الظلم والعدوان وراوها مدونة في الكتب يتناقلتها الناس غيروها خلف عن سلف استبقوها وأعرضوا عنها ، واذا رأوا سر الولاة العادلين وحسنها ، وما يتبعهم من الذكر الجليل بعد ذهابهم ، استحسنوا ذلك ، ورغبوا فيه ، وتدلوا بمحاسن الأخلاق .

٣ — حصول الانسان على العديد من التجارب والمعرفة بالحوادث ، وما تصير اليه عواقبها « فيزداد بذلك عقلا ، ويصبح لان يقتدى به أهلا » .

٤ — ما يتجمل به الانسان في المجالس والمحافل من ذكر شيء من معارفها ، ونقل طريقة من طرائفها فترى الاسماع مصيغة اليه ، والوجوه مقبلة عليه ، والقلوب تأملة ما يورده ويمدده ، مستحسنة ما يذكره <sup>(٢٣)</sup> .

ويقول السخاوى « ان التاريخ جم الفوائد كثير النفع لسوى الهمم العالية والقرائح الصافية » .

---

(٢٢) انظر : الكامل في التاريخ ج ١ ، المجلد الاول ، بيروت ، دار صادر ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م ص ٦ — ٧ .  
(٢٣) نفسه .

ويذكر ابن خلدون : أن من التاريخ من غزير المذهب جم الفوائد ،  
تشریف الغاية إذ هو يوقفنا على أحوال الماضيين من الأمم في أخلاقهم ،  
والأنبياء في سيرهم ، والملوك في دولهم وسياستهم (٢٤) .

ويقول عنه أيضا أنه « في ظاهره لا يزيد على أخبار عن الأيام والدول  
والسوابق من القرون الأولى وفي باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومبادئها ،  
دقيق ، وعلم بكيفيات الوقائع ، وأسبابها عميق » (٢٥) .

ويقول صاحب « كشف الظنون » أن « علم التاريخ هو معرفة  
أحوال الطوائف وبلدانهم ورسومهم وعاداتهم وصنائع أشخاصهم ، وأنسابهم  
ووفياتهم الى غير ذلك وموضوعه أحوال الأشخاص الماضين . . والفرض  
منه الوقوف على الأحوال الماضية وفائدته العبرة بتلك الأحوال والتنصيح بها ،  
وحصول ملكة التجارب بالوقوف على تقلبات الزمن » (٢٦) .

ويقول عنه المؤرخ المصري « عبد الرحمن الجبرتي » « اعلم أن التاريخ  
علم يبحث فيه عن معرفة أحوال الطوائف وبلدانهم ورسومهم وعاداتهم  
وصنائعهم وأنسابهم ووفياتهم . وموضوعه أحوال الأشخاص الماضية من  
الأنبياء والأولياء والعلماء والحكباء والشعراء والملوك والسلاطين وغيرهم .  
والفرض منه الوقوف على الأحوال الماضية من حيث هي ، وكيف كانت  
وفائدته العبرة بتلك الأحوال والتنصيح بها ، وحصول ملكة التجارب بالوقوف  
على تقلبات الزمن ، ليحترز العاقل عن مثل أحوال الهالكين من الأمم المذكورة  
السالفين ، ويستجلب خیار أفعالهم ، ويتجنب سوء أفعالهم ، ويزهد في  
الفانى ويجتهد في طلب الباقي » (٢٧) .

---

(٢٤) من المعروف أن ابن خلدون ذهب الى أن التاريخ فرع نوعي من  
المعرفة يهتم بكامل مجال الظواهر الاجتماعية ويكشف المؤثرات المختلفة .  
وللزيد من التفاصيل حول ذلك الموضوع انظر تاريخ ابن خلدون  
المسمى بكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر .  
(٢٥) نفسه ج ١ ، بيروت ص ٧ .  
(٢٦) كاتب جليلي : المرجع السابق ج ١ ص ٢١٢ .  
(٢٧) الجبرتي : المصدر السابق ج ١ ص ٢ .

ويقول المؤرخ النجدى « عثمان بن بشر » ان « علم التاريخ علم شريف فيه موعظة واعتبار ، واطلاع على حوادث الدهر الدوار ، ومعرفة أحوال الماضين مما يوقظ الأذهان والأفكار ، ويقىس العاقل نفسه على ما مضى من أمثاله فى هذه الديار » (٢٨) .

ويقول المؤرخ اليمنى عبد الواسع الواسعى عن علم التاريخ أنه « علم جليل المقدار شهدت بفضلها الآيات والأخبار ، واعتنى بنقله الأثبات والأخبار ، وأنفتقوا فى ذلك نفائس الأعمار ، يطلع به العاقل على ما مر من الأعصار ، فيزيده من الكياسة والاستبصار بما حدث نلأم الماضى من الحوادث التى فيها عظة واعتبار » (٢٩) .

ويقول عنه صاحب « اتحاف أهل الزمان » انه « يكسب الناظر برهان التجريب ، ويشحذ فكر الأديب الأريب ليقيس على ماضى مواقع الانتقادات والرضى ويرى الأسباب وما تولد منها ، والحوادث وما نشأ عنها ، وأولاده لمائت الفضائل بموت أهلها وادى ذلك الى جهلها » (٣٠) .

ويقول عنه صاحب العقيق اليمانى (٣١) « ان علم التاريخ مما تدعو الحاجة اليه ، ويعرف به أهل كل عصر ، وعظماء كل زمان ، والعلماء والفصحاء فى كل أوان ، وبه تعرف الحوادث وأوقاتها ، والخلائق وصفاتها ، ويعرف المتأخر ما تقدم من قبيح وحسن فيختار لنفسه ما أراد واستحسن » .

وهكذا يتضح مدى تطور علم التاريخ عند العرب منذ أن كان قصة تروى ، وبطولات تذكر الى أن أصبح علما له قواعده وأصوله ، وله علماء الذين يعرفون فوائده ومحاسنه .

---

(٢٨) انظر . عنوان المجد فى تاريخ نجد ج ٢ ، الرياض ، مكتبة الرياض الحديثة ص ٢ .

(٢٩) انظر . تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن فى حوادث وتاريخ اليمن ، القاهرة ، ١٣٤٦ هـ ص ٣ — ٤ .

(٣٠) مجهول المؤلف : اتحاف الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان .

ج ١ ، الطبعة الثانية ، الدار التونسية للنشر ١٩٧٦ ص ٢ .

(٣١) عبد الله الشقرى .